المشكلة التربوية في الخطاب المسجدي بين العيوب الذاتية والعوائق الموضوعية

بقلم الأستاذ : سعيد معول
مدير التكوين وتحسين المستوى
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يمكن للمسلم العاقل أن يكون مطمئنا ولا مستريحا لواقع الخطاب المسجدي عندنا أو عند غيرنا من الشعوب الإسلامية، ولا إلى قدرات القائمين عليه على مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل ومستحدثات الزمان والمكان المتسارعة والمتلاحقة.

هذا الخطاب - في تقديري المتواضع - لا يزال دون المستوى المطلوب الذي يؤهله لتقديم صورة كاملة، واضحة، ودقيقة عن الإسلام كما وردت في القرآن الكريم، وكما بيّنته السنّة النبوية المطهرة الشارحة والمبينة لهذا القرآن، وكما جال به الأسلاف العظام في أرجاء هذه المعمورة وصالوا، فامتلأت بأعمالهم وآثارهم الأرجاء التي وصلوها، فتحولت الحياة بفضل فهمهم لرسالة ربّهم، وبفضل عدلهم وإحسانهم في تنفيذ تعاليم دينهم إلى ربيع مزهر، كثر ثمره وأينع زهره وورف ظلّه وعمّ خيره.

وإذا كان الخطاب المسجدي - على كل حال - يحشد كثيرا من المعلومات الدينية ويسوق كثيرا من معانيه، فإنّه يفتقر كثيرا إلى المؤهلات التربوية التي ترشحه ليكون قادرا على توجيه سلوك الفرد والمجتمع نحو مقاصد رسالة الإسلام الواضحة وغاياتها المثلى، ويصوغ المثل العليا التي تمثل إحساسا مشتركا بين سائر أفراد المجتمع ومؤسساته، ويزرع في القلوب العواطف النبيلة التي تجعل من المسلم إنسانا قادرا على صياغة شبكة العلاقات الاجتماعية التي تضمن الحياة الكريمة لكل الناس وتمكّنهم من استمداد قوتهم وعناصر بقائهم من الماضي المشرق ومن رسم الطريق نحو المستقبل الوضاء تملأه العزة والكرامة ونحو تحقيق الهدف الذي ينبغي أن نكرس له وجودنا ونسخر لها جهودنا.

إنّ الإسلام حينما جاء – أيّها الأخوة – دعا الإنسان إلى أن يشعر بقيمة ما أودعه الله تعالى فيه من قدرات عقلية ودعاه إلى توظيفها ليكون قادرا على فهم عالم نفسه، وعالم الطبيعة المحيط به – أو عالم الشهادة كما يسمّيه القرآن – وأن يكون قادرا على فهم سنن الله في خلقه، وحكمه في من مضى من الأمم والحضارات، هذه السنن التي تسري على الجميع بدون محاباة ولا تمييز، ويبقى أعظم فقه يمكن أن يصل إليه عقل الإنسان هو فهم هذه السنن وفقهها. ويلتقي الإسلام في هذه النقطة بالذات مع ما تدعو إليه التربية الحديثة حينما تكون بعيدة عن الألوان المجتمعية والبيئية والتي في نهاية المطاف ما هي إلاّ دعوة الإنسان إلى توظيف كل قدراته العقلية وإمكانياته الذاتية ليفهم العالم المحيط به، ومن ثم يتفق علماء التربية المعاصرة على ضرورة توجيه اهتمام منظومات التربية والتعليم والتكوين نحو تفتيق هذه القدرات ونحو التحكّم في توظيفها، ولن يكون ذلك ممكنا إلاّ إذا كان التعليم الموجّه لهذا الإنسان يصب في هذا الاتجاه، ومن ثّم فإنّ المعلومة أو المعرفة التي لا يحتاجها الإنسان لتوظيفها في حياته الخاصة أو العامة ينبغي الاستغناء عنها حتى لا تصبح عائقا أمام تقدّم الإنسان نحو الأمام ورقيّه نحو الأعلى وسموه نحو الكمال البشري الذي يجب أن يبقى الغاية النهائية لكل منظومات التربية والتعليم والتكوين.

إنّ الخطاب المسجدي الذي هو وسيلتنا لتعليم الناس وتوجيههم وإرشادهم ينبغي أن يكون قادرا على تمكين الدين الحق من العقول وترسيخ التدين الصحيح في النفوس لتشفى هذه النفوس من عللها وأسقامها وأمراضها وليتمتع الإنسان بعقل رصين، وضمير حي وقلب سليم ذلك أن الكم الهائل من المعارف والثروة الطائلة من العلوم والنظريات لن يكون مجديا إذا صاحبه الفقر المدقع في المشاعر النبيلة، ولم يصاحبه السلوك الكريم القويم. والسؤال الذي يفرض علينا نفسه هنا بإلحاح هو كيف يتمكن الخطاب المسجدي من تحقيق هذا التدين الصحيح ؟ أو كيف يتمكن القائمون عليه من توجيهه الوجهة الصحيحة التي تؤدي إلى بلوغ المرمى والمقصد أو الغاية ؟ لا يكفي أبدا الاغتراف من التراث بدون غربلة ولا تصفية وتقديمه هكذا للناس اليوم وهم يعيشون ظروفا غير ظروف الأجداد، ويواجهون تحديات غير تحديات الأمس القريب أو البعيد. إنّ بعض فقهائنا الذين كتبوا فصولا وألفوا مجلدات في غسل الأطراف أو غيرها من أبواب الفقه لم يهتموا كثيرا بجانب التربية والتزكية ليضبطوه بأدلتهم الفقهية ليتوافقوا بذلك مع هداية القرآن المجيد الذي بينت آياته المحكمات أن الغرض الهدائي هو الغاية المنشودة من وراء كل تشريع، وما يقال عن بعض فقهائنا

يسرى حكمه على كثير من علماء الكلام الذين عقدوا الفصول الخطيرة وحرّروا القراطيس العريضة في الشؤون الإلهية والغيبية عموما بيد أنّهم لم يجيبوا الناس ببساطة ووضوح ولم يوجّهوهم إلى ما يرفعهم إلى حضرة الله تعالى مع أنّ ذلك أجدى للإسلام وأهله من تلك البحوث العقيمة في الذات والصفات وما استتبع ذلك من العداوات والخصومات بين الناس وما تسبّب فيه من ضياع لجهود الأمة الفردية منها والجماعية عبر العصور.

نعم لقد عمل كثير من علمائنا في هذا الوطن بالذات على سدّ أبواب الشّر، ومنافذ الفتنة، فكانوا يجمعون بين سعة العلم وصدق الصلة بالله والأجيال التي كانت تأخذ العلم عنهم استفادت منهم نضارة القلب المتجه إلى الله تعالى وإشراقة الفقه الذي يضيء الطريق عليه، ولا غرو في ذلك فقد كانوا يجمعون بين العلم والتربية، وبين الفقه والتزكية وبين الآخرة والدنيا.

ومن هنا يتضح جليا أن مسؤولية المشرفين على الخطاب المسجدي تتمثل في الأخذ على عاتقهم معالجة هذا الخلل وإكمال هذا النقص الذي كان سببا في الفراغ الروحي الذي تعاني منه البشرية، ذلك أنّ الدين الحق الذي تهفو إليه النفس السوية ليست جملة معارف فقط يصدقها العقل بعد أن يستبين صحتها، ولكنه إلى جانب ذلك إحساس بالوجود الإلهي الخالق الذي يروي ظمأ الروح إلى الفوز برضا الله المطلق وإلى التسامي في معارج الكمال التي لا حدّ لها «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة»[1] «لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد»[2].

إنّ شيوخ الزوايا عليهم الرحمة والغفران عملوا كثيرا في هذا المضمار حبذا لو استخلصناه ونقيناه وأزلنا عنه الغبار والصدأ لننفع به أنفسنا وننفع به الآخرين. إنّنا اليوم أكثر من أيّ وقت مضى في حاجة إلى خطاب مسجدي تطبق فيه طرائق تحويل العلوم الدينية والأحكام الفقهية النظرية إلى خلق لازم وعمل دائم وأسلوب في الحياة معروف الهدف والمقصد، ومن ثمّ فإنّني أنكر طريقة التعامل مع التراث الذي يكتفي صاحبه بتعلم فقه الفروع وتعليمها، ولكني أرى أنّ ذلك كله ينبغي أن يوجه إلى القيام بوظيفة التربية القلبية والإيقاظ العاطفي والتهذيب النفسي لتمكين هذا المتعلم أو هذا المصلي من الرقي في معارج الكمال ومراتب السمو اللائق بالمنزلة الرفيعة التي وضع الله تعالى فيها الإنسان، والإسلام في جوهره إنّما فرض أحكامه من أجل تحقيق هذه الأهداف المنشودة، ولا يمكن للإسلام أبدا أن ينتفع بالذين يتعمّقون في دراسة شتى علومه، واستحضار أقوال علمائه في كل العصور إذا كانت قلوبهم خواء ونفوسهم مريضة وبواطنهم لا تتحرك فيها إلاّ الغرائز البدائية التي تحركها

1 - سورة يونس 26
2 - سورة ق 35

مطالب الدنيا البسيطة، أؤكّد فأقول: لا يمكن لهذا الدين أن ينتفع بعلوم هؤلاء ولا بأقوالهم إلاّ أن تحيا قلوبهم بذكر الله وتمتلئ نفوسهم بخشيته وتتقيّد أفعالهم بحدوده. لنسأل أنفسنا بصراحة هل حقيقة يكفي مضمون الخطاب المسجدي في عمومه لغرس الإيمان بالله واليوم الآخر في النفوس، ويملأ القلوب بالطمأنينة والسكينة والرضا بما جاء عن الله ورسوله ويمكّن من وضع أسس ثابتة متينة تقام عليها التربية الكاملة ؟ وهل نجح هذا الخطاب في ربط سلوك المستمعين إليه من المسلمين في كل المواقع وفي مختلف المناسبات بديناميكية اجتماعية تضامية خيرية، كما تربط العربات برأس القاطرة الدافعة ؟.

وممّا لاشكّ فيه أنّ افتقار الخطاب المسجدي إلى هذه الجاذبية التي تشدّ إليه حركات الناس وسكناتهم هو السبب في إخلاء الجوّ لسائر المؤثرات الأخرى والموجهات المختلفة، وبالتالي فتح المجال لمختلف الأهواء بل الشهوات التي تكاد تحول أوساطنا إلى مرتع للتديّن المغشوش الذي يفضي إلى الهزيمة، ويرسخ التخلّف ويعيش أهل الضمائر والإخلاص معه في حرج.

وهل تمكّن الأسلاف الكرام من نشر الإسلام في مختلف أرجاء المعمورة وبين مختلف الشعوب والأمم إلاّ بذلك اليقين الذي ملأ نفوسهم وقلوبهم بالخير والرضا، فجعلهم يبتعدون عن الشبهات والدنايا، ويترفعون عن مطالب الدنيا بمعناها السلبي، وجعل الناس من مختلف شعوب المعمورة يلحظون صفاء قلوبهم ورقة طباعهم واستقامة سلوكهم وصدق أقوالهم وأفعالهم وإخلاص نياتهم لله ورسوله، مما جعلهم يقبلون على دين الله أفواجا بقلوب راضية ونفوس زكية.

ثمّ نسأل أنفسنا مرة أخرى ما مصدر هذا التخلف في فقه سنن الله في كونه، وفقه النفس والطبيعة وقوانينها واستخراج دفائنها ؟ وما مصدر هذا القصور في فهم التاريخ وسيرة الأمم السابقة للوقوف على عوامل ازدهارها وأسباب هلاكها واندثارها وفي العجز على الوقوف على سنن الله في التاريخ والاجتماع والحضارة ؟.

ثمّ، هل الخطاب المسجدي في عمومه يساعد على فهم الظواهر النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي نزل القرآن المجيد ليعالجها، ويجعل المسلم الذي يوجه إليه قادرا على ملاحظة أسبابها وإمكانية تكرارها في كل وقت وأوان مع دوام صلاحية علاج القرآن الكريم لها باعتباره علاجا إلهيا أزليا لمستحدثات البشر ومشكلاتهم، لأنّ ما استحدثه البشر فوق هذه الأرض من علل في القديم هو الذي يستحدثونه اليوم وسيستحدثونه غدا ؟.

إنّ الطريقة التي يعالج بها الخطاب السجدي مختلف القضايا ويواجه بها المستجدات تحتوي على نقائص كثيرة، ومردّ ذلك - لاشك- لأمرين وهما: إمّا لأنّ القائمين عليه غفلوا عن أمور كثيرة أو جهلوها وكان يجب أن يحيطوا بها علما، وإمّا أن علمهم بكثير من هذه القضايا يحتاج إلى المراجعة ويفتقر إلى التجديد والتحيين ليكون قادرا على مسايرة الواقع ومتغيراته ويواجه المستقبل وتحدياته، ولن يكون له ذلك إلاّ إذا تمكّن من استعادة العناصر الضرورية التي لابدّ منها لتكوين الغذاء العقلي والروحي المطلوب للجماهير التي يقدم لها ويبتعد عن كل التعقيدات والتراكمات التي أثقلته عبر القرون والتي ابتعدت به عن منبعه الصافي وحولته عن مجراه الطبيعي. ولابدّ أن أسرع هنا لأشير إلى أنّ ما في هذا الخطاب المسجدي من حقائق عقيدية أو تشريعية ما يزال يعرض العرض المنفر ويقدم التقديم القاصر أو يفسر التفسير الناقص الذي في كثير من الأحيان لا يسمن ولا يغني من جوع.

ولعل هذا يكون هو السر في اضطراب أحوال هذا الخطاب خلال العقود الأخيرة، ولعله الدافع الذي كان وراء طرحي له كقضية في اجتماعنا هذا. فما هي إذن الأسباب ؟ وما هو العلاج ؟. سنحاول فيما تبقى من هذه المداخلة استعراض بعض الأسباب باختصار على أن نترك العلاج إلى وقت آخر، لأنّ الوقوف على الأسباب قد يسهل التحكم في النتائج ويمكن من الإسراع في إبطال مفعولها أو على الأقل التخفيف من آثارها ووطأتها. فما هي هذه الأسباب باختصار ؟.

أوّلا : انعدام المنهاج وضعف المنهجية :

إن المنهاج الذي نعني به النسق التعليمي والتوجيهي الشامل منعدم في مساجدنا، وما يقدّم في كل مسجد يتوقف على اجتهاد الإمام القائم عليه، قد تتسع مداركه وآفاقه وهو قليل، وقد تضيق وتضمر، ويظهر عليه القصور ومن ثمّ يصبح هذا الخطاب لا تتقدم به دنيا ولا يستقيم به سلوك ولا تطمئن له نفس أو ينتصر به دين. كم من قائم عليه يخضع خطابه لمنهاج واضح المعالم له غايات واضحة، ومقاصد مضبوطة، وأهداف مرسومة وطريقة في تعليم الدين معلومة ووسائل تبليغ كافية ؟، وكم من قائم عليه يخضع عمله لتقييم تربوي هادف يحاسب نفسه بحسب النتائج المحصل عليها، ويشرع في التقويم من أجل تشخيص النقائص للعمل على تفاديها ومعرفة نقاط القوة للعمل على دعمها، ويقيس الأهداف المحققة

من أجل إدخال مختلف التحسينات والتصويبات الضرورية لبلوغ المرامي والمقاصد، وكم من هؤلاء القائمين على الخطاب المسجدي يتحسس وقع خطابه في أوساط الذين يوجه إليهم خاصة وفي أوساط المجتمع عموما ليقوم بتكاليف التربية اللازمة لهم وتحسين تعليمهم وإرشادهم وتهيئة الظروف الملائمة التي تساعد على تفتيق مواهبهم وتنمي عقولهم وتوجه سلوكهم.

ذلك أنّه لا يمكن لإمام أن يؤدي رسالته بنجاح إلاّ إذا كان الناس الذين يتوجه إليه من أصحاب النفوس الصحيحة الخالية من كل الأمراض والعاهات التي تصيب السلوك والمشاعر، وما أكثر هذه العاهات في أوساط الناس في عالم اليوم بفعل عوامل معقدة وبفعل مؤثرات غاب عن ساحتها كثير من قيم الإسلام بسبب ضعف المسلمين في كل الميادين وتسلم غيرهم من البشر قيادة العالم اليوم.

ثانيا : الميل إلى التقليد والعزوف عن التجديد :

إنّ الخطاب المسجدي الذي نبحث عنه، ونريده في مساجدنا هو الذي تتهيّأ القدرة لأصحابه أو القائمين عليه على الجمع بين صحة العلم وصدق المعرفة وحكمة العلاج، ونحن جميعا أيّها الإخوة نعرف أنّ في حياتنا اليوم وفي تراثنا المتنوع ركاما من البدع الموروثة، والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل في بعض الأحيان تراث أنتجته الأهواء ومختلف الملل والنحل التي عرفتها المجتمعات الإسلامية حسب تعاقبها في الزمن وتجاورها أو تباعدها في المكان، هذه الأمور التي يفهمها الكثيرون منا اليوم على أنّها هي الدين، وما هي كذلك، لا في القليل ولا في الكثير، ونعرف كذلك أنّ هناك طائفة ضخمة من آراء الرجال وأفكارهم ومذاهبهم ومشاربهم، قد تركها الزمن، ولكن أريد لها هكذا أن تبقى لاصقة بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم طالبة الخلود معهما، ويقدمها خطابنا على أنّها الدين أو التفسير الصحيح له. لاشك أن هذه الآراء والمذاهب تجمع بين الخطأ والصواب، ولكن تقديمها للمسلمين من خلال الخطاب المسجدي دون تمحيص ودون غربلة قصور ما أنزل الله به من سلطان ينم على حالات نفسية، ووضعيات اجتماعية وعيوب حضارية خطيرة يعاني منها المسلمون، والعاقلون من المسلمين اليوم، والمخلصون من علمائهم يعلمون أن الشلل الجزئي الذي أصاب العقل الإسلامي عبر قرون عديدة وفي كثير من مناحي الحياة، قد يتطور إلى شلل عام يكون عائقا للمنظومة الفكرية لدينا كثيرا أن لم تتم معالجة هذا الوضع بسرعة على أن يكون للخطاب المسجدي في ذلك الدور الأساس.

إنّ ما نحن عليه اليوم ما هو إلاّ نتيجة لذلك الموت الأدبي والضعف المادي الذي أفقد الأمة مناعتها وأفقدها القدرة على التجديد والتجريد والإبداع، كما أفقدها القدرة على مواجهة المشاكل والتحديات ومسايرة التغيرات والتحولات، فكان من نتيجة ذلك أن لاقتنا كثير من الهزائم الكاسحة والانكسارات التي يصعب جبرها والتي اجتاحت أوطان المسلمين من أقصاها إلى أدناها. ولابدّ أن يتفق اليوم القائمون على الخطاب المسجدي على ضرورة تجريد العلوم الإسلامية من الأوهام والخرافات ومن الخلافات العقيمة، والفلسفات المقوضة للبناء الاجتماعي المتين والمتنافية مع تعاليم الإسلام البيّنة، الواضحة، البسيطة التي تأمر أتباعها بالعمل والإخلاص فيه والإتقان له وتأمرهم بصدق النية وإخلاصها لله الخالق. لابدّ إذن من تجريد هذه العلوم من كل هذا ومن كلّ ما أدخل عليها وهو ليس منها، ولكنّه تمّ في إطار سياق تاريخي معروف، وبذلك فقط يصفو الجو للحق المبين ليرسم طريق الهدى والخير، والنجاة.

ثالثا : عدم القدرة على الانتقاء من الموروث العلمي والثقافي :

لقد ظلت الثقافة الإسلامية بكل فروعها زمنا طويلا وأمدا بعيدا أجدر الثقافات بالحياة، ومن ثم كان الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وطبقاتهم يقبلون عليها بحفاوة لما لاحظوه عليها من القدرة على بناء الحياة الإنسانية على أسس ركينة، وعلى تجديد هذه الحياة وتنظيمها وجعلها قادرة على مسايرة تطور العصور وتعاقب الأزمنة، وتنوّع الأمكنة ولكن بعد ذلك أتى علينا حين من الدهر فقدت الأمة الإسلامية خصائص القدرة على التحليق وخصائص القيادة الرشيدة ومواصفات الريادة الحكيمة، فأخذنا نهبط رويدا، رويدا، بل ارتطمنا بالأرض عبر محطات تاريخية كثيرة، وفي هذا الوقت بالذات أخذ غيرنا يصعد، ويلحق، ويسبق، ويعلو وينجز وينظم، ويتقدم ... وهكذا ....

ولا أريد أن يفهم من كلامي بأنّني أريد أن أنتقص من جهود أوائلنا، لأنّ فضلهم علينا لعظيم، ونحن مدعوون دوما للاستفادة منهم، ولكن أريد أن أنبّه إلى غفلتنا وغفوتنا ونومنا وجمودنا واعتمادنا على زاد الأوائل في كل شيء.

إنّني اعتقد جازما أنّهم لو وجدوا اليوم أحياء بيننا ما قبلوا منّا هذا المسلك، ولدفعونا إلى التجديد والإبداع وإلى البحث والانتفاع، وإلى الاختيار والانتقاء، لنعيد للعلوم الإسلامية كافة نضارتها وحيويتها وقدرتها على حل معظلات الإنسان ومشكلاته.

إنّ تفسير القرآن غير القرآن – إذ القرآن المجيد كلام الله لا ريب فيه هدى للعالمين، أمّا التفسير، فهو جهد المفسّر، أو العالم، الذي حاول تبيان معاني الكتاب الكريم، فقد يصيب وقد يخطئ.

والفقه الإسلامي الذي – مع الأسف – جمد لعدّة قرون، ويحاول من حين لآخر أن يستيقظ من غفوته، بل أن ينهض من رقدته الطويلة يجب أن تبذل الجهود لتعود له حيويته، وتعود إليه جذوته ونضارته وإشعاعه، وعلم الحديث يحتاج في عصرنا إلى إحياء، وتجديد من خلال إحياء النقد البنّاء، والتمحيص الدقيق، على شرط أن يقام المشروع – بالإضافة إلى الأسس القديمة– على أسس جديدة في إطار منظومة علمية وفكرية شاملة تنظر إلى هذه العلوم نظرة كلية تكاملية متفادية النظرة التجزيئية التي كثيرا ما شوهت هذه العلوم، وقطعت أوصالها وهكذا – وبنفس المنهج – في سائر العلوم الأخرى.

وخلاصة القول وحاصله، فإنّه من غير المقبول ولا المعقول أن يبقى خطابنا المسجدي يغترف ويتغذى هكذا من كل الموروث العلمي والثقافي دون إنتقاء، ولا تمحيص ولا غربلة، ولعل من أهم المشكلات التربوية في هذا الخطاب اليوم هو الميل إلى هذه الرتابة القاتلة، وشغل أذهان الناس، وحشد عقولهم بكل ما أنتجته العصور السابقة سواء كانت الحياة ما تزال تدّب فيه وما يزال يصلح للعلاج، أم أنّ الأيّام تفرض علينا تجديده وتحيينه، أو ضع بعضه بكل بساطة في المتحف.

رابعا : عزوف القائمين على الخطاب المسجدي عن علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية :

إنّنا نتساءل والحيرة تملأ أفئدتنا، هل يقبل في الإسلام، ومن منظور القرآن الكريم أن تفصل العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والإنسانية عن الدين وكأنّ لكل منها كيانه المستقل في نظام المعرفة؟ كيف نفصل العلوم الطبيعية عن الخطاب المسجدي، وقد جعل القرآن نفسه هذه العلوم (أي معرفة آيات في كونه وفي خلقه) سبيل إلى الإيمان بالله الواحد ورفض الشرك « وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون؟ »[3]. وكيف يعقل فصل العلوم الاجتماعية عن الخطاب المسجدي، وقد جعل القرآن سلوك الإنسان وعلاقاته المختلفة بالمكان والزمان الذي يعيش فيه موضوعا لأحكام تشريعاته المختلفة، كما جعل القرآن الإنسان مسؤولا مسؤولية كاملة عن كل العلاقات والمؤسسات التي ينشئها.

3 - سورة الذاريات 20 -21

وكيف يقبل فصل العلوم الإنسانية عن الخطاب المسجدي، وقد جعل القرآن معرفة النفس ومعرفة أحوالها، ومعرفة تجارب الشعوب والأمم مرجع الإنسان في التبصّر بمصيره، وبمصير الشعوب والأمم في إتّباع هذا المنهج أو ذاك في الحياة ؟.

ألا ينبغي أن يكون القائمون على الخطاب المسجدي ملمّين بهذه العلوم والمعارف جميعها في إطار الرؤية الشاملة والحل الناجع والمنهج القويم الذي يرسمه القرآن حتى يتمكّن المسلم من وضع نفسه في موقع يمكنه من فهم غايات الدين ومقاصده في تربية الإنسان وتوجيهه ؟

ألاّ يكون من أوجب واجبات الخطاب المسجدي أن يعمل على تقديم الحقيقة كما تظهر في آيات الله تعالى وفي خلقه، وأن يكشف عن معرفة النفس وأحوالها ومعرفة حياة الشعوب والأمم وأن يطلعنا على عوامل ازدهارها وعوامل اندثارها لأنّ ذلك كلّه يسير وفق سنن كونية يسري مفعولها على الجميع دون تمييز أو محاباة ؟ لاشكّ أنّ معرفة ذلك كلّه جزء لا يتجزأ من الدين. إن تجزئة المعرفة لم ينشأ أبدا في المجتمعات الإسلامية في عصور ازدهارها، لأنّ ذلك ببساطة شيء لم يدع إليه كتاب الله ولا سنة رسوله، وإنّما هو مسلك ونحو أخذته الحضارة الغربية التي فصلت بين الدين والعلم لأنّها حضارة لا يقتضي الدين فيها معرفة عالم الطبيعة أو عالم الشهادة، ولا يقتضي معرفة النفس على حقيقتها كأساس لمعرفة الدين، ولا يقتضي الدين توظيف هذه المعرفة كأساس للإيمان الكامل، «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت»[4]، إذا كان متعذّرا على الغرب أن يجمع بين العلم والأخلاق والدين بسبب الهدنة الطويلة التي اصطنعها بين العلم والدين عندهم، وبالتالي تعذّر عليهم توظيف العلم لفقه الدين، ومن ثم عاشوا في عوالم متناقضة، وفي تمزّق وضبابية وتوتّر داخلي في النفس، هذا التمزّق الذي يحاولون دوما أن يغفلوه بمهادنة مصطنعة كذلك تعوّدوا عليها وعاشوا معها وفيها، فما عذرنا نحن – المسلمين – الذين نتلو آيات القرآن المجيد، والتي أولاها تأمرنا صراحة بالقراءة والكتابة وطلب العلم والمعرفة «إقرأ باسم ربّك الذي خلق . . .»[5].

خامسا : النظرة التجزيئية لنصوص الشريعة :

إنّ المتتبع للطريقة التي تعرض بها مختلف العلوم الإسلامية في المساجد يلاحظ أنّ القضايا

4 - سورة الغاشية 17-20

5 - سورة العلق 1

الدينية عموما والأحكام الفقهية خصوصا تقدم كأنّها مفردات مفككة، أو أجزاء منفصلة، أو أبواب منعزلة، فهناك باب للنكاح مثلا، وآخر للطلاق والنفقة والإيلاء والبيوع وهكذا. هذه الأجزاء كلها يجمعها عنوان واحد في الواقع وهو ما يسمّى عندنا بنظام الأسرة. ولو نظرنا إلى جميع النصوص الشرعية المتعلّقة بهذا العنوان نظرة كلية جامعة لظهرت لنا جليّا هداية الإسلام ومقاصده المتعلقة به، وسيختفي كثير من اللغو المتداول، والكلام الزائد، الذي لا طائل من ورائه، ولا يخفى على أيّ عاقل الفرق الكبير بين عرض السيارة مثلا في شكلها العام، وعرضها كأجهزة، وقطع، ومقاعد مفصولة، أو النظر إلى جسم الإنسان في تناسقه العام، أو تصوّره كأجزاء مفصولة. إنّ عرض أحكام الشريعة أجزاء مفصولة، متناثرة هو الذي جعل الناس ينظرون إلى الطلاق مثلا على أنّه مشكلة في حين جعله الله حلاّ لمشكلة قائمة، وهذه المشكلة تتمثل في فتور العلاقة الزوجية أو اختلالها والتي يستحيل معها بقاء هذه العلاقة لما في ذلك من الأضرار التي تلحق بمقاصد الشريعة من سنة الزواج. ولست أدري من أين تسرّب كثير من الكلام الفارغ إلى كتب فقهنا من مثل قولهم « أنت طالق نصف طلقة، أو إن ذهبت إلى بيت أبيك فأنت طالق»، أو غير ذلك، في حين الطلاق في الواقع مثلما تتجلّى مقاصده من القرآن ومن السنّة النبوية، هو سبيل لتمكين كل طرف من تجديد محاولات النجاح في إقامة مشروع الزواج على الأسس السليمة التي ينبغي أن تؤسس عليها الأسرة المسلمة يقول تعالى: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة»[6].

إنّ المتأمّل في الحديث الصحيح المتعلق بزوجة الصحابي ثابت بن قيس رضي الله تبارك وتعالى عنهما يدرك معنى الطلاق في الإسلام، ويدرك ما معنى قوله تعالى: «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان». لنتأمل حالة هذين الزوجين الكريمين كيف حضرا معا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وكيف تحدثت هذه الزوجة بدون كبت ولا عقدة قائلة: «يا رسول الله إن ثابتا بن قيس لا أعيب عليه لا في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام» ولنتأمّل بعد ذلك كيف أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم احترم عاطفة هذه الزوجة، ولنتأمّل مرة ثالثة هذا الصحابي الجليل الذي جاء إلى النبي صلّى الله عليه وسلم وهو خاضع لأمر الله تعالى ومقتنع بإمضاء هذا العقد بنفس الرضا الذي وقّع به عقد الزواج قبل ذلك بقليل أو كثير. إنّ الإحسان الذي قيد به التسريح في الآية الكريمة

6 - سورة الروم 21

لا يمكن أن يتحقق إلاّ إذا اقتنع الطرفان بضرورة الانفصال تمكينا لكل واحد منهما من إعادة التجربة وتجديد المحاولة « وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم»[7] . فلنقرأ الآيات المتعلقة بالموضوع في سورة البقرة، ولنتأمل كيف جاءت في وحدة موضوعية يصعب معها فصل أجزائها بعضها عن بعض يقول الله تعالى: « للذين يولون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإنّ الله غفور رحيم، وإن عزموا الطلاق فإنّ الله سميع عليم، والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن، إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر، وبعولتهن أحق بردّهن في ذلك إن أرادا إصلاحا، ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم، الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلاّ أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله، فإنّ خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون»[8] فلنتأمل جيّدا كيف تتعاضد ألفاظ هذه الآيات لإبراز الصورة الرائعة لأحكام القرآن المجيد، ولإبراز العلاقة الزوجية في الشريعة الإسلامية التي لا يجوز بأيّ من الأحوال تدنيس قداستها، وتحت أيّ ذريعة كانت، وإنّما يتعيّن على المسلم في كلّ ذلك أن يلتزم حدود الله وأن يتحلى بالأخلاق الحميدة حتى في المواقف الحرجة ويتصرف إزاءها بحكمة العقلاء وإيمان الخلصاء. فالإيلاء لم يشرع من أجل عقوبة الزوجة كما يقول كثير من فقهائنا وإنّما رخصة شرعية من أجل تمكين الزوجين للعمل على تجديد العلاقة الزوجية وتجريدها وإيقاد جذوتها، لأنّ هذه العلاقة المقدسة يتعيّن على طرفيها دوما العمل على تجديدها ومقاومة تبددها، وعلى بعث الحياة فيها ومقاومة الفتور والرتابة حتى لا تتسرب إليها، والطلاق ليس طريقا لنبذ الزوجة أو طردها وعزلها اجتماعيا، وليس سلاحا في يد الزوج يهدّد به الطرف الآخر كلما طاب له ذلك، وإنّما هو طريق لكل واحد منهما ووسيلة لتمكينه من تقوية العلاقة الزوجية التي يتهددها الوهن، أو تمكينه من تجديد المحاولة مع الغير إذا استحالت العشرة في التجربة الأولى، لأنّ ما ينتظره الدين من الأزواج أشرف من أن يؤسس على مثل هذه العلاقة، وهكذا .... وما يقال في هذا الموضوع يمكن أن يقال في كل الموضوعات الأخرى، في البيوع ومختلف العقود، وفي الإشهاد والأقضية وغيرها. إن الرضا الشرعي المقصود مثلا في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلاّ أن تكون تجارة عن تراض منكم»[9] لا يتحقق إلاّ إذا كانت القيم المتبادلة بين الناس في الأسواق متساوية ولا يجوز التفاوت بينها إلاّ بالقدر

7 - سورة البقرة 227
8 - سورة البقرة 226-229
9 - سورة النساء 29

الذي يتفاوتون فيه في الجهود التي يبذلها كل واحد منهم، لأنّ علاقات البشر فيما بينهم ما هي في آخر المطاف إلاّ سوق كبيرة يلتقي على صعيدها كل الناس ليتعارفوا ويتبادلوا المنافع والعرق، فهذا يعرض سلعة وآخر فكرة وثالث خدمة وهكذا . . . . وكل النصوص الشرعية الواردة في هذا الموضوع كلها تتعاضد لمنع تحول المعاملات بين الناس إلى وسيلة الاستحواذ على جهود الغير بغير حق والاستحواذ على عرقهم بغير وجه مشروع، هكذا ينبغي أن تكون نظرتنا للنصوص الشرعية وتدرك على أساس أنّها تشكل وحدة موضوعية لها مقاصد واحدة وهي منع الظلم والعدوان ومحاربة الاستغلال، ومقاومة الاختلال وإقامة الميزان، وبهذه النظرة نتجنّب كثيرا من الحيل والالتواءات ونستريح من كثير من اللغط واللغو، لأنّ الحياة الكريمة اللائقة بمنزلة الإنسان لا تبنيها مثل هذه الأمور التي من أشدها وأصعبها كثرة اللغو والخصام والجدال ولعلٍ من أجل ذلك كان من مواصفات الجنة أن المؤمنين الداخلين إليها لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. وما أصعب اللغو على عقل الإنسان !!.

سادسا : الاختلال المادي في المجتمع :

من العوائق الموضوعية الخطيرة التي تعيق الخطاب المسجدي وتمنعه من الوصول إلى تحقيق غاياته ومقاصده اختلال التوازن المادي في المجتمع، هذا المرض الذي عانت وما تزال تعاني منه المجتمعات البشرية كثيرا. والمجتمع حينما يختل توازنه المادي يختل توازنه الأدبي والمعنوي بحكم الضرورة. وحينما نغلغل البصر في بعثات المرسلين لمختلف الأقوام نلحظ أنّ هذه الظاهرة كانت دوما تمثل حجر عثرة أمام جهودهم وتفانيهم في تبليغ ما أمروا به أن يبلغوه للناس من هداية ربّ العالمين. والقرآن، كثيرا ما قصّ علينا شكاوى الأنبياء والمرسلين وأنين الخطاب الديني عموما تحت وطأة الاختلال، فهذا نوح عليه السلام نسمع القرآن يقول عنه: «قال ربّ إنّي دعوت قومي ليلا ونهارا، فلم يزدهم دعائي إلاّ فرارا وإنّي كلّما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا، ثمّ إنّي دعوتهم جهارا، ثمّ إنّي أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا، فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفارا، يرسل السماء عليكم مدرارا . . . . الآيات»[10]. إلى أن قال: «ربّ إنّهم عصوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلاّ خسارا»[11] إلى أن قال: «ربّ لا تذر على الأرض من

10 - سورة نوح 5-11
11 - سورة نوح 21

الكافرين دياراإنّك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلاّ فاجرا كفارا»[12]، ونجد نفس المسلك تأخذه عاد عندما تتوجّه صراحة لنبيّها « هود» عليه السلام الذي دعاهم إلى الإيمان بالله والعمل الصالح « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين »[13].

ومن الأمثال السائرة بين الناس كثيرا، ولكنّهم عن حقيقة معناه غافلون قولهم: «على من تقرأ زبورك يا داود». فالنبي داود عليه السلام الذي أتاه الله خيره العميم المتمثل في الزبور والذي كان إذا قرأه كانت الجبال تردّد معه والطيور، إلاّ تلك الفئة التي كانت تتزعّم قافلة العصيان مدافعة عن مصالحها الضيّقة كانت تمّر عليه وتقول ساخرة « على من تقرأ زبورك يا داود» فمثل هذه الأمثال هن من بنات الواقع الذي ما جاء المرسلون إلاّ ليعيدوا التوازن لحياة البشر فوق هذه الأرض ومن ثمّ تغيير هذا الواقع المختل الذي يستحيل مع بقاءه بناء حياة كريمة تليق بكرامة الإنسان ومقامه ودرجته عند الله ربّ العالمين.

إنّ الاختلال المادي إذا ساد في أيّ مجتمع أفضى إلى ظهور ما سماه القرآن بالترف المقوت، وكلّما استفحلت هذه الظاهرة صعّبت من مهمة المصلحين بل نكاد نجزم بأنّ أيّة دعوة إصلاحية يكون من العسير على أصحابها النجاح في مهمتهم ما لم يسارعوا إلى علاجها والقضاء عليها، « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلاّ قال مترفوها إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مقتدون»[14]. ولنا أن نتساءل بعد ذلك هل جعل الخطاب المسجدي عندنا مقاومة الاختلالات وتجفيف ينابيعها من مهامه الأساسية ؟ وهل الكيفية التي يتناول بها مختلف القضايا المتعلّقة بهذا الموضوع كفيلة بأنّ تعيد المياه إلى مجاريها ؟ وهل استطاع هذا الخطاب أن يجعل المصلين ينقلون ما يدعون إليه في المساجد من القيم والسلوك إلى البيوت وإلى الأسواق والشوارع وأماكن العمل وغيرها، وهل استطاع أن يؤثر في شبكة العلاقات الاجتماعية ويجعلها تلتزم بآداب الإسلام وأخلاقه وتوجيهاته ؟ « يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون»[15].

إنّ كل فعل أو سلوك لا ينحو نحو تقليص تأثير الاختلالات وتحجيم أثرها في المجتمع والتخفيف من وطأتها، يعتبر عملا يدفع إلى تجذّرها في السلوك الاجتماعي العام، وهو ما يفضي إلى إحداث التصدّعات والتشقّقات في الجدار الاجتماعي، أو يؤدي إلى إحداث خرق في سفينة المجتمع على حدّ وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم لركاب السفينة سواء

12 - سورة نوح 26-27
13 - سورة الشعراء 136
14 - سورة الزخرف 23
15 - سورة الأنفال 20-21

منهم الراكبون في الأعلى أو الراكبون في الأسفل. لا يمكن أن يكون الخلاف بيننا اليوم بأنّ من المهام الأساسية للخطاب المسجدي اليوم هو مقاومة الاختلالات المادية والأدبية، وسدّ الثقب والثغرات ومنع التصدعات والتشققات، وإلاّ عن أيّ إصلاح تتحدّثون ؟

تلك إذن هي بعض العيوب الذاتية التي يتسم بها الخطاب المسجدي اليوم، وهي كما تلاحظون ما هي إلاّ ملاحظات عابرة، ولكن التعمّق في إبرازها يتطلّب منّا أن نخصص لها وقتا أكثر من أجل شرحها وتوضيحها بأمثلة، لعلنا نقف على بعض جوانب دائنا، والوقوف على الداء طريق للوصول إلى وصف الدواء.

والله المستعان.